علي ومسيرة الحضارة الإسلامية /٥

(الصفحات ٣٥- ٤٠)

ملخّص

أمير المؤمنين علي بن أبي طالب(ع) واصل مسيرة الإحياء بعد رسول الله(ص)، وبذلك صان المسيرة الحضارية الإسلامية من الجمود والركود. نهج البلاغة وثيقة هامة في حقل الإحياء والاستنهاض الحضاري، سواء في رسائله أو خطبه أو كلماته القصار. وهذه وقفات عند كلماته القصار.

قال عليه السلام: « مَنِ اسْتَبَدَّ بِرَأْيِهِ هَلَكَ ، وَ مَنْ شَاوَرَ الرِّجَالَ شَارَكَهَا فِي عُقُولِهَا».

الاستبداد بالرأي ناتج عن استفحال الذاتية، وتحولها إلى طاغوت يمنع الاستماع إلى الآخر، ومن هنا فهو محروم من بشرى القرآن: ﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِ، الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾. والاستبداد بالرأي على مستوى الفرد وعلى مستوى الجماعة أكبر عقبة على طريق التكامل والتطور الحضاري.

* * *

وقال عليه السلام: « الْفَقْرُ الْمَوْتُ الأَكْبَرُ»

الفقر من أكبر عوامل الشعور بالذلّ، والذلّ موت، من هنا كان الفقر موتًا أكبر. ومن الواضح أن المقصود بالفقر هنا هو الذي يؤدي إلى الشعور بالذلّ، لا الفقر الذي يختاره لأنفسهم ـ عن إرادة ـ المتحررون من المال والمتاع، فذلك فخر لهم. الفقر المذلّ أكبر عقبة أمام إحياء الفرد والجماعة.

* * *

وقال عليه السلام: « لا طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ الْخَالِقِ»

طاعة المخلوق حين تكون في اتجاه معاكس لطاعة الخالق ـ هي من موانع الوصول إلى الكامل المطلق، ومثل هذه الطاعة تحوّل المخلوق المطاع إلى طاغوت، وإلى وثن يتعملق على طريق الكمال، ويصدّ المسيرة التكاملية.

* * *

وقال عليه السلام: « الإِعْجَابُ يَمْنَعُ الازْدِيَادَ»

الازدياد هنا هو الازدياد في قطع أشواط طريق الكمال. وإذا ابتُلي الفرد أو الجماعة بالإعجاب، فلا يطلبون الازدياد، ويتحول هذا الإعجاب إلى عقبة على طريق الكمال.

* * *

وقال عليه السلام: « النَّاسُ أَعْدَاءُ مَا جَهِلُوا»

كثير من المواقف السلبية المعادية التي يتخذها الأفراد من الأفكار والعقائد والأشخاص والجهات هي نتيجة جهلهم بما يعادونه. من هنا فإن كلمة الإمام هذه تتضمن التوصية بمراجعة مستمرة لمواقف الإنسان السلبية تجاه الآخر. هل هذا الموقف نتيجة علم بسلبيات هذا الآخر أو نتيجة جهل به. وهي توصية حضارية هامة تضع معيارًا لمواقف الإنسان.. وهو أن تقوم على العلم والدقة والتمحيص.

* * *

وقال عليه السلام: « آلَةُ الرِّيَاسَةِ سَعَةُ الصَّدْرِ»

سعة الصدر تعني استيعاب ما يواجهه الإنسان من أمر لا يرغب فيه ولا يستسيغه. وهذه لا تتوفر إلاّ عند من يتعالى على ذاتيته وأنانيته. وهذا التعالي لا بدّ أن يتوفّر فيمن يريد أن يتولى أمور الناس ورئاستهم. وبدون ذلك فإنه يصطدم وينازع ولا يستطيع إدارة الأمور. والتخلّي عن الذاتية والأنانية في الإدارة توصية لها قيمتها التكاملية الحضارية في الرئيس والمرؤوسين.

* * *

وقال عليه السلام: « لا خَيْرَ فِي الصَّمْتِ عَنِ الْحُكْمِ كَمَا أَنَّهُ لا خَيْرَ فِي الْقَوْلِ بِالْجَهْلِ»

نهي عن الصمت في الحكم وعن القول بالجهل، النهي الثاني يبين أن النهي الأول عن الصمت في حالة العلم والاستيقان. إذن هنا نهي عن حرمان الآخرين من عطاء العلم، ثم نهي عن قول لا يصدر عن علم. وهذا المعيار في القول والصمت معيار حضاري، لأنه يقوم على أساس العلم.

* * *

وقال عليه السلام: « إِنَّ لِلْقُلُوبِ شَهْوَةً وَ إِقْبَالاً وَ إِدْبَاراً فَأْتُوهَا مِنْ قِبَلِ شَهْوَتِهَا وَإِقْبَالِهَا فَإِنَّ الْقَلْبَ إِذَا أُكْرِهَ عَمِيَ».

المقصود من القلوب هنا ـ كما يظهر من السياق ـ وعاء المعرفة. ينفتح هذا الوعاء أحيانًا ليستقبل، وينغلق أحيانًا أخرى ليستدبر، والاستثمار الصحيح لهذا الوعاء هو اغتنام فرصة انفتاحه، وعدم إكراهه حين ينغلق أو يدبر. فالإكراه يسدّ منافذ تلقي المعرفة ويعمي القلب.

وهذا درس تربوي للمربّي والمتربّي، وهو السعي لفتح منافذ المعرفة كي يكون التلقي عن رغبة وعشق، لا عن إكراه وإجبار.

* * *

وقال عليه السلام: « لَمَّا سَمِعَ قَوْلَ الْخَوَارِجِ لا حُكْمَ إِلا لِلَّهِ: كَلِمَةُ حَقٍّ يُرَادُ بِهَا بَاطِلٌ».

يضع الإمام معيارين لتلقي الخطاب. أن يكون الكلام حقًا وأن يكون مقصده حقًا كذلك. وهذه مسألة لها قيمتها الكبرى في تلقي الكلام. كثير من شعارات الحقّ نسمعها من هنا ومن هناك، لكنّ أصحابها يريدون بها باطلاً وانحرافًا عن الحق.

* * *

وقال عليه السلام: «كلُّ وِعَاءٍ يَضِيقُ بِمَا جُعِلَ فِيهِ إِلا وِعَاءَ الْعِلْمِ فَإِنَّهُ يَتَّسِعُ بِهِ».

هذه نظرة هامة للعلم، فهو لا حدّ له، ثم إنّ الإنسان كلّما استزاد منه شعر بأن هناك فراغًا معرفيًّا فيه يجب أن يملأه، وهو دعوة إلى طلب العلم دون انقطاع، ودعوة إلى الأجيال المتعاقبة أن لا تتوقف عند حدّ معيّن في المسيرة العلميّة.

* * *

وقال عليه السلام: « الْخِلافُ يَهْدِمُ الرَّأْيَ»

والخلاف لا يعني الاختلاف، بل هو الشقاق والنزاع. وهذا يحجب الرؤية الصحيحة، ويهدم التفكير الصحيح. لأنه يجعل الجوَّ متشنجًا متعصبًا مفعمًا بالبغضاء والشنآن، كما يجعل أطراف الخلاف لا تستمتع إلى رأي الآخر بل يهمها نقضه وافحامه.

* * *

وقال عليه السلام: « أَكْثَرُ مَصَارِعِ الْعُقُولِ تَحْتَ بُرُوقِ الْمَطَامِعِ»

والمطامع هي انشداد الإنسان إلى الأهداف الهابطة وتسخير طاقاته لنيلها، وهذا الانشداد يكون على حساب الارتفاع إلى مستوى ما يدعو إليه العقل الإنساني من أهداف كبرى. وعبارة «مصارع العقول» تعبير جميل عن الصراع الذي يدور بين المثل العليا الهابطة والمثل الأعلى السامي.

وهكذا عبارة «بروق المطامع» فالأهداف التافهة لها بريق كاذب كبريق السراب.

* * *

وقال عليه السلام: « **الطَّامِعُ فِي وِثَاقِ الذُّلِّ**»

والطامع كما ذكرنا أعلاه من يهبط إلى مستوى الأهداف الصغيرة، فيفقد عزّته التي لا تتحقق إلاّ بالسير نحو المثل الأعلى المطلق سبحانه، ويسقط في وثاق الذلّ.

* * *

وقال عليه السلام: « **إِذَا كَثُرَتِ الْمَقْدِرَةُ قَلَّتِ الشَّهْوَةُ**».

التقابل بين المقدرة والشهوة له مفهوم حضاري هام. فالمقدرة تعني شعور الإنسان بالاقتدار والعزّة والكرامة، ومثل هذا الإنسان يرتفع إلى مستوى أهداف كبيرة، فلا تستفحل فيه الشهوات والأهواء والاهداف الصغيرة.

والعكس صحيح، فحين يشعر الإنسان بالضعف في مقدرته، تكبر عنده الأهداف الصغيرة وتتضخّم لديه الشهوات.

* * *

وقال عليه السلام: كان لي فيما مضى أخ في الله.. ويصف هذا الأخ وصفًا يرفعه إلى مستوى الإنسان الحضاري الذائب في رساليته ثم يقول عنه: « **كَانَ عَلَى مَا يَسْمَعُ أَحْرَصَ مِنْهُ عَلَى أَنْ يَتَكَلَّمَ** ».

وهذه صفة هامّة يقف عندها الإمام في وصف هذا الأخ الإلهي. فهو حريص على أن يسمع أكثر من حرصه على أن يتكلّم.

ولا تتوفر هذه الصفة إلاّ عند من اجتنب طاغوت الأنانية والذاتية. فهو يريد أن يسمع، أي يتلقى من الآخر. وأما طاغوت النفس فيسدّ منافذ الاستماع ويجعل الفرد لا يهوى إلاّ أن يطرح نفسه، ويتكلم ويتكلم دون أن يسمع. وذلك الحريص على الاستماع هو الذي يقول عنه سبحانه: ﴿ وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ، الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾.

* * *

قال عليه السلام وكان راكبًا وحرب بن شرحبيل الشبامي يمشي معه: « ارْجِعْ فَـإِنَّ مَشْيَ مِثْلِكَ مَعَ مِثْلِي فِتْنَةٌ لِلْوَالِي وَ مَذَلَّةٌ لِلْمُؤْمِنِ».

يتجلى في هذه العبارة اهتمام الإمـام بعـزّة المـؤمن وبابتعـاد الحـاكم عـن الغـرور والافتتان. وهو اهتمام حضاري، وفيه درس للحاكم في تعامله مع الناس.

* * *

وقال عليه السلام: «: إِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ فَرَضَ فِي أَمْوَالِ الأَغْنِيَاءِ أَقْوَاتَ الْفُقَرَاءِ فَمَـا جَاعَ فَقِيرٌ إِلَّا بِمَا مُتِّعَ بِهِ غَنِيٌّ وَ اللَّهُ تَعَالَى سَائِلُهُمْ عَنْ ذَلِكَ».

هذه العبارة: « فَمَا جَاعَ فَقِيرٌ إِلا بِمَا مُتِّعَ بِهِ غَنِيٌّ » تقـرر قاعـدة اقتـصادية هامـة وتشكل مَعلمًا حضاريًا في الحياة الاقتصادية إذ تقرر: أن الفقر سببه سوء التوزيع لا قلة الانتاج. فالأرض فيها ما يفي بحاجة الناس، لكنّ سوء التوزيع هو الذي يصادر حاجـة طبقة الفقراء.

* * *

سمع أحد الخوارج كلامًا لأمير المؤمنين فأعجبه فقال هذا الخارجي: قاتله الله كـافرًا ما أفقهه!!

فوثب أصحاب الإمام اليه ليقتلوه . فقال عليه السلام: « رُوَيْداً إِنَّمَا هُوَ سَبٌّ بِسَبٍّ ، أَوْ عَفْوٌ عَنْ ذَنْبٍ».

وهذا ارتفاع في الشخصيّة ما بعده ارتفاع، إذ ليس في وجود الإمام روح للانتقام بل هو معيار الشرع دون معيار هوى النفس..

لقد ذكر الخارجي ما يجول في نفسه عن الإمام بلغة فجّة فيها تكفير وفيهـا سـباب، والموقف منه إمّا «سبّ بسبّ» وأسمى منه «عفو عن ذنب».